خطاب التطرف: خصائصه ومغالطاته

(أ) المقصود بخطاب التطرف: أسلوب الجماعات الدينية المعاصرة الذى تقدم به قضيتها الرئيسية، وتعرض على أساسه عناصرها ومفرداتها. ويمكن التعرف على خصائص هذا الخطاب من خلال الكتيبات والمنشورات التى أصدرتها خلال الأعوام الماضية، وكذلك من خلال المرافعات والاستجوابات التى جرت مع زعمائها أثناء المحاكمات.

ولابد من الإشارة إلى غياب جزء مهم جداً من مادة هذا الموضوع، وهو الخاص بالخطاب الدينى داخل الجماعات المتطرفة ذاتها: أى خطاب القادة أو الأمراء إلى الأتباع.[٢٩]

ومهما يكن من أمر، فإن تحليل مالدينا من مادة متاحة، يمكننا من التعرف على الخصائص التالية لخطاب التطرف:

١- الواقعية فى معالجة قضايا ساخنة تجذب الانتباه، وعلى رأسها قضية تكفير الحاكم، وإدانة السلطة القائمة، والتشخيص النقدى لكل الأحزاب السياسية الموجودة على الساحة، مع المناداة بضرورة التغيير وتحديد الهدف بإقامة الخلافة الإسلامية كاملة وغير منقوصة.

ومن الواضح أن مثل هذه القضايا لم يتعود على مناقشتها، فضلا عن طرحها، علماء الدين (الرسميون)، وإذا اضطر بعضهم لتناولها أسرع باللجوء إلى الماضى للاستعانة به، حتى يبتعد عن مواجهة الواقع.

٢- التبسيط الشديد سواء فى طرح قضايا العقيدة (وهى معقدة جداً فى مؤلفات علم الكلام الإسلامى) أو فى اللغة الدينية المستخدمة، وهى لغة العصر المفهومة من الأغلبية، مع تطعيمها بنصوص دينية من القرآن والسنة النبوية حتى يسهل على كل أحد فهمها وترديدها.

٣- اقتطاع بعض آيات محددة من القرآن الكريم، وأحاديث نبوية بعينها ومجموعة محدودة جداً من أقوال علماء السلف (كابن الجوزى وابن تيمية) لخدمة أغراض خاص، وتوجيهها وجهة معينة (وقديماً فعل علماء الشيعة مثل هذا الصنيع مستخدمين منهج "التأويل" فى فهم وتوجيه نصوص القرآن الكريم).

٤- عدم الدخول فى جدل نظرى مع المعارضين لهم، وبذلك وفروا على أنفسهم مجهوداً كبيراً، فضلا عن أنهم أمسكوا دائما بزمام المبادرة. ولاشك أن المهاجم يكون عادة فى وضع أفضل بكثير من المدافعين.

٥- يستخدم الخطاب الدينى لدى الجماعات المتطرفة أسلوباً أدبيا ذا طابع حماسى واضح، وقد استفاد -دون شك- من "أسلوب المنشورات" المعروفة بجمله القصيرة، ولهجته القاطعة، وشعاراته المصكوكة بعناية مما يضفى عليه مزيداً من الهيبة والتأثير، وخاصة فى نفوس الشباب المتطلع إلى الإصلاح، وتحقيق المثل العليا على أرض الواقع.

(ب) وعلى الرغم من المظهر الحاسم، واللهجة القاطعة التى يقدم بها المتطرفون خطابهم الدينى، فإن هذا الخطاب يحتوى على عدد من المغالطات الفكرية والتاريخية والواقعية[٣٠] ومن ذلك:

١- تجاهل الواقع التاريخى للمسلمين: فالحديث عن الخلافة الإسلامية باعتبارها هى المنقذ لكل مشكلات العالم المعاصر يناقضه ما حدث عبر عصور طويلة بعد عصر الخلفاء الراشدين وليست حالة التخلف التى يعانى منها المسلمون اليوم إلا نتيجة تاريخ طويل لم تستثمر فيه مواردهم، ولم تنظم أحوالهم، ولم يشجع فيها العلم للقيام بدوره فى تحسين الواقع وتطويره.

٢- مبدأ الحاكمية لله - على الرغم من أنه شعار براق، ذو وقع مؤثر على النفوس، إلا أنه ينحل - عند التحليل الأخير - إلى قيام واحد أو فئة من الناس باستغلال حق فهمه وتطبيقه، وبذلك فإنه يتحول بالضرورة إلى حكم بشرى باسم الدين. وخطورته حينئذ هو استئثاره وحده بالسلطة، وعدم السماح للرأى الأخر بالمعارضة أو التعبير.

٣- إغفال الواقع الدولى المعترف به، والذى لن يسمح بإقامة كيان إسلامى موحد، والواقع الذى يقوم على احترام وحماية الحدود السياسية والجغرافية للدول، بالدعوة إلى تذويبها فى كيان سياسى واحد، يعتمد على صيغة دينية (الخلافة الإسلامية) مع مايترتب على ذلك من إخلال بالصيغة الدولية المتفق عليها، والمرعية من كافة دول العالم (ويمكن استرجاع ماحدث عندما أقدمت العراق على احتلال الكويت سنة ١٩٩١).

٤- إغفال فشل التجارب المماثلة للصيغة التى تدعو إليها الجماعات المتطرفة. ومن الواضح أنها صيغة خيالية حالمة، سرعان ما تتهاوى عند أول اصطدام لها بالواقع. ويتمثل ذلك فى صراع قادتها على السلطة من ناحية، واختلاف وجهات النظر حول مسائل التنمية من ناحية أخرى. وقد حدث الأمران معا، ومازالا يحدثان فى كل من إيران وأفغانستان.

٥- المجتمعات الإسلامية لاتعيش فى جاهلية كما يدعون، ولاتستحق التكفير لمجرد وقوع بعض التجاوزات من بعض الأفراد والهيئات. إنهم يتجاهلون أن مثل هذه التجاوزات كانت تقع فى المجتمعات الإسلامية السابقة طوال مراحل التاريخ. ولم يحدث من أكثر العلماء تقوى أنه وصفها بالكفر، أو طالب بمحاربتها على هذا النحو.